الحرب تؤدي
الى الحرب

كل حرب ناتجة من حرب أو حروب سابقة ومؤدية الى حرب مستقبلة ما دامت المنافسة سنة الضراري وما دامت الأمم تختلف في مقدار قوتها وبأسها ونظامها ، وأوضح ما تكون هذه الحقيقة في الحروب العالمية الكبيرة التي تخلف مشكلات واسعة النطاق ولكنها تصدق أيضاً في الحروب الصغيرة . وإن خفيت وغمضت أحياناً . وقد تكون تأدية الحرب الى الحرب بطريقة غير مقصودة وبعيدة عن أغراضها . أو قد تكون بطريقة متصلة بأسبابها . فاذا نظرنا في تاريخ مصر الحديث وجدنا أن واقعة التل الكبير كانت منذرة بواقعة أم درمان وبأطماع إيطاليا في الصومال والحبشة وحروبها فيها .

وإذا رجعنا الى عهد الخديوي اسماعيل بالمسا وجدنا أن الحرب الداخلية في الولايات المتحدة في أمريكا الشمالية كان لها أثر في مصر فان انقطاع ورود القطن الخام من الولايات الجنوبية إلى مصانع انجلترة بسبب محاصرة أسطول الشمال لها أدّى إلى الإكثار من زراعته في مصر والى ارتفاع ثمنه ارتفاعاً كبيراً أغرى الحكومة والشعب بالانفاق عن سعة . فلما انتهت تلك الحرب هبطت الأثمان وكان كثير من الناس يظنون أن هبوط الثمن هبوطاً كبيراً إنما هو أمر مؤقت وإنه سيعود الى الارتفاع وهذا مثل ما زعم الناس في أعقاب الحرب العالمية الأولى التي أدّت إلى إفلاس كثيرين لاعتمادهم على عودة ارتفاع ثمن القطن بعد هبوطه ولم يصدقوا أنه هبوط دائم . وهذا الانفاق عن سعة كانت له أسباب أخرى منها توقع إزدياد ثروة مصر زيادة كبيرة بسبب فتح قناة السويس لمرور تجارة العالم بين الشرق والغرب بها وربما كان سبب هذه الفكرة ما كان يذيعه المروجون لفتحها ، وأيضاً القياس على ثروة سلاطين المماليك وهو قياس لا يصح ، أولاً لأن تلك الثروة كانت من الضرائب الكبيرة التي كانت تفرض على تجارة المرور وليس للدولة مثلها في قناة السويس .

وثانياً ـ ان الصناعات اليدوية في ذلك العصر كانت تقع على طريق مرور التجارة وتنتفع بها وتنفع الدولة والأمة. ومن أسباب الانفاق عن سعة أيضاً تعجل ثمرات الإصلاح والاعتماد عليها قبل أوان حلولها، وارتفاع ثمن القطن بسبب تلك الحرب الداخلية كان من هذه الأسباب. وهذا الإنفاق عن سعة أدّى إلى تدخل من جانب الدُّول ثم تحالفات متصلة إلى الثورة العرابيَّة. وإذا نظرنا الى حروب محمد علي باشا وجدنا أيضاً أن حرباً منها تؤدي الى حرب. وإذا بحثنا تاريخ الولايات المتحدة وجدناه يسير على هذه القاعدة. فحرب السنوات السبع التي نشبت بين انجلترة وفرنسا وأدّت الى انتقال كندا من فرنسا إلى انجلترة أغرت سكان المستعمرات الانجليزية في الولايات المتحدة الأمان بسبب زوال الخطر عنهم من ناحية مستعمرات فرنسا. واستشعارهم الأمان أدّى الى نقد خطة انجلترة الاستعمارية بحوهم وإلى السخط من أوجه الأثرة فيها ولا سيما احتكارها الصناعة والتجارة. فكان ذلك هو السبب الحقيقي لحرب استقلال الولايات المتحدة. وإن كان السبب الظاهر تغلب الحكومة الانجليزية بضريبة دخلها قليل ولكن النزاع كان على المبدأ. فحرب السنوات السبع مهّدت لحرب استقلال الولايات المتحدة وهذه الحرب الأخيرة مهدت للحرب الداخلية لأنّ هذا الاستقلال أدّى الى اعتماد الولايات الشمالية منها على صناعاتها وتجارتها بدلاً من الاعتماد على الصناعات الإنجليزية وكان لتلك الولايات ميزات صناعية. ولكن الصناعة الناشئة فيها كانت تحتاج الى حماية، فكان همّ تلك الولايات فرض الضرائب على الصناعات الأجنبية لحماية مصنوعاتها من منافستها وأن لا تفرض على المزروعات كي تقل نفقات الصناعة ولم يكن يهمها أمر الرقيق ولم تكن في حاجة إليه لأن الجو يناسب العمال البيض. أما الولايات الجنوبية فكانت على عكس ذلك يهمها رخص المصنوعات الأجنبية وحماية مزروعاتها بالضرائب على المزروعات الآتية من الخارج. وكان يهمها بقاء تجارة الرقيق وزيادة الولايات المعتنقة لمبدأ تجارة الرقيق بين الولايات الجديدة. ولما كانت الولايات الشمالية صارت أكثر ازدحاماً بالسكان البيض فقد كثر عدد نوابها وخشيت الولايات الجنوبية سيطرة الولايات الشمالية فقرّرت حقها في الانفصال عن الوحدة ولو فازت هذه النظرية التي تعطي الولاية حق الانفصال لتجزأت الولايات المتحدة ولم يكن لها أثر في سياسة العالم.

ومن أجل ذلك قاتل أهل الشمال لحماية الاتحاد وصيانة الاتحاد أدّى إلى تعاظم الولايات المتحدة والى اشتراكها في حروب آخرها الحرب العالمية الثانية . وإذا رجعنا القهقرى الى العالم القديم رأينا أن حرب فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ وحرب تركيا والروسيا سنة ١٨٧٧ — ١٨٧٨ هيئتا أسباب الحرب العالمية الأولى . ففي الحرب الفرنسية البروسية سنة ١٨٧٠ انتزعت بروسيا الالزاس واللورين من فرنسا وأخذت منها غرامة كبيرة ساعدتها في نمو شأنها . وأدّت الحرب الى تأسيس الامبراطورية الألمانية الحديثة وصارت هذه الامبراطورية تدفع بالدول الى ميدان الاستعمار لاسباب كثيرة منها تصريف الزائد من مصنوعاتها التي زادت زيادة كبيرة لم يكن لها مثيل في ماضي تاريخها ومنها الرغبة في إيجاد مأوى لمن يهاجر من سكانها. ومنها أن تنشغل فرنسا بالاستعمار عن التفكير في استعادة الالزاس واللورين ، ومنها محاولة إيقاع الدول المستعمرة في نزاع كي تكون المانيا حكماً بينها . وكل هذه الأمور هيأت الحالة النفسية والمادّية التي أدّت إلى الحرب العالمية الأولى وإن كانت شعلتها اشتعلت في البلقان بسبب جريمة سيراجيفو عند ما قتل بعض الفتيان من صقالبة الجنوب المؤتمرين في الصرب الغراندوق فردناند ولي عهد النمسا وزوجه . ثم أن نيل صقالبة الجنوب ما رزموا من تركيا بحربي ١٨٧٧ و ١٩١٢ كان منذراً بحرب أخرى بينهم وبين النمسا لتحرير المقاطعات النمسوية والمجرية التي يسكنها الصقالبة . فالحرب العالمية الأولى ناتجة من حروب سابقة حسب القاعدة العامة .

وإذا نظرنا الى الحرب العالمية الأولى والى عواقبها رأينا أنها لم تحل مشكلات العالم بل زادتها وهيأت أسباب الحرب العالمية الثانية لأن الحرب العالمية الأولى زادت مشكلة الشعوب الألمانية وخلقت مشكلات في بحر البلطيق وأواسط أوربا والبلقان وأدت لخلقات متصلة إلى البلشفية والفاشستية والنازية وخلقت بين ما خلقت مشكلة المر البولوني الذي أشعل نار الحرب العالمية الثانية وان كانت أسبابها متعددة ناشئة من كل ما خلقت الحرب الأولى من مشكلات .

وإذا ما رجعنا إلى ما قبل حرب فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ رأينا ان هذه القاعدة تصدق أيضاً أي ان كل حرب تؤدي إلى الحرب فإن حرب فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ كان ظاهر

صبيها ترشيح أحد أمراء أسرة الهوهنزلرن التي كانت تحكم بروسيا كي يكون ملكاً لاسبانيا فرأت فرنسا في ذلك تهديداً لها واسلامتها من ناحيتين فرفض هذا الأمير العرش الاسباني وكان هذا يكفي لتهدئة فرنسا ولكنها أبت إلاَّ أن تذل بروسيا بأن تتعهد لها هذه إن مثل ذلك لا يحدث في المستقبل فإن مثل هذا التعهد لا قيمة له إلاَّ ارادة اثارة نزاع جديد. وكان بسمارك السياسي البروسي يرى ان المانيا لا يتم اتحادها إلاَّ إذا قهرت فرنسا وأبعدت عن نهر الرين لان فرنسا كانت لها أطماع في الدول الرينية. وقد نشر بسمارك الوثائق الكتمانية التي تثبت ذلك فكان هذا مما أدى إلى امتعاض الدول من فرنسا ووقوفها موقف الحياد عندما هزمها الالمان وضمع فرنسا في الأراضي الرينية ظهرت أيضاً في عهد نابليون وفي عهد الدركتوار وفي الثورة الفرنسية. وقبل ذلك في عهد لويس الرابع عشر الملك البوربوني. وقد فقدت فرنسا كل ما غنمته أيام الثورة الفرنسية وأيام نابليون ولكنها لم تفقد الأراضي الرينية التي استولت عليها أيام البوربون. ومن أجل ذلك قال بسمارك لبعض الساسة الفرنسيين « نحن إنما نحارب لويس الرابع عشر » وهذا دليل قاطع ان حروب لويس الرابع عشر بذرت بذور حرب ١٨٧٠.

ويطول المقال إذا تتبعنا الحروب واحدة بعد واحدة ورأينا كيف تصدق هذه القاعدة فيها. فنرى أن كل حرب تؤدي الى حرب في المستقبل.

ولكن بعض المفكرين يقولون أن الحرب العالمية الثانية تختلف عن الحروب السابقة (أولاً) بسبب كشف سر القنبلة الذرية. و (ثانياً) لوجود هيئة الأمم ومجلس الأمن العام. أما هيئة الأمم فلا أراها تختلف اختلافاً كبيراً عن عصبة الأمم في الجوهر. وأما القنبلة الذرية فإنها قد لا تمنع الحروب لأسباب (أولاً) ان الأبحاث الذرية تقوم بها الآن دول كثيرة وليس من المستطاع الإشراف على كل بقعة في العالم لمنع صناعة القنابل الذرية. (ثانياً) إذا عرفت دول متعددة سر هذه القنبلة فمن الجائز ان تحدث حرب لا تستخدم فيها كما لم يستخدم غاز الخردل في الحرب الثانية في أوربا (ثالثاً) على فرض إنها استخدمت فمن الجائز أن يكون أثرها في قصر مدة الحرب أكثر من أثرها في القتل والتدمير وإن كان عظيماً. ففي الحروب الماضية كان الملايين من الناس يموتون في حرب أو عدة حروب بينها فترات استجمام ولكن أسبابهم

لا تتغير. فكانت مدة الحرب أو الحروب المتصلة الأسباب أطول ولكن الهلاك فيها أو بعدها بسبب المجاعات أو الأوبئة أو بسبب قتل الأسرى أو تعذيبهم أو اهمالهم أو استعبادهم لا يقل كثيراً عن الهلاك في الحروب الحديثة السريعة . والتخريب قديماً وان ضعفت أدواته كان تخريباً شاملاً حتى ان بعض الغزاة كان يقال عنهم ان النبات لا ينبت في أرض دمرتها جنودهم فكانوا يدمرون المدن ويفتلعون النبات والأشجار ويبذرون الملح في الأرض أو يسقونها بماء مالح كي لا تنبت شيئاً. ومن المعروف ان بقاعاً كانت عامرة هي الآن قليلة السكان والعمران بسبب تلك الحروب أو كانت الحروب من بعض أسباب خرابها أو تأخرها. ويبالغ أهل العصور الحديثة في زعمهم إنهم أرق إحساساً من أهل العصور السابقة وإنهم بسبب ذلك مبتعدون عن الحروب وعن القتل والتدمير . فاذا قسنا رقة الشعور بالنزعات الانسانية في كل عصر كانت نزعات خير وأحلام بالسلام وإذا قسناها بآلات القتال فالعصور الحديثة لم تحجم عن استخدام آلات أهد هولاً من آلات القتال القديمة . ثم ان الظاهر ان الأمم قد تساق إلى الحروب سوقاً لأن الناس لا يسيطرون على نزعاتهم تمام السيطرة ولا يحكمونها حكماً تاماً . والحرب الثانية لم تحل مشكلات العالم حتى يظن إنها خاتمة الحروب بل زادتها تضخماً واستعصاء بالرغم من هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن العام. والنزاع بين الشيوعية والرأسمالية يزداد استفحالاً ومشكلة الشعب الالماني من العسير حلها حلاً نهائياً ولا تزال شعوب كثيرة تتطلع إلى التخلص من النفوذ الأوربي وبعضها به نزاع بين طوائفها. وكل هذه المشكلات بذور لحرب مقبلة لا تقل عن بذور الحروب الماضية ولا يستطاع القطع بأن الحرب لن تكون ونحن الآن في فترة الاستجمام ولكنه استجمام كله متاعب إلا أنه قد يبعد عن الأذهان خطر الحرب المقبلة حتى تنسى ذكرى المستر تشمبرلين قبل الحرب الأخيرة عندما عاد بالطائرة من المانيا إلى انجلترة وصار يلوّح للجماهير بورقة اتفاق مبونيخ ويقول لقد كسبنا السلم !! ثم كانت الحرب بعد قليل . والحقيقة هي انه ما دامت الأمم مختلفة في مقدار قوتها ونظامها وما دامت المنافسة أساس العمران فمن الصعب تحقيق السلم الدائم . بل من المحال منطقياً ان يكون إذا لم نغالط أنفسنا في معنى تلك المنافسة ولوازمها .

ع . ش